سيد الناس يوم القيامة

سيد الناس يوم القيامة -١

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال :

" كنا مع النبى – صلى الله عليه و سلم – فى دعوةٍ ، فَرُفِعت إليه الذّراع – وكانت تُعجبهُ – فَنَهسَ منها نَهْسَةً ، و قال : " أنا سيّد الناس يوم القيامة.هل تدرون بمن يَجْمعُ اللّهُ الأولين و الآخرين فى صعيد واحد؟فيُبصرُهُم الناظر ويسمعُهُم الداعى ، و تدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترَوْنَ إلى ما أنتم فيه، إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون **إلى من يشفعُ لكم إلى ربكم؟فيقول بعض الناس:أبوكم آدم.**

فيأتونه فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر– خلقك اللّه بيده – و نفخ فيك من روحه ، و أمر الملائكة فسجدوا لك ، و أسكنك الجنة. ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟

فيقول: ربى غضب غضباً لم يغضب قبله مثْله، ولا يغضب بعَدُه مثْله، ونهانى عن الشجرة فعصيْتُ. نفسى نفسى.اذهبوا إلى غيرى..." **(أخرجه البخارى وغيره)**

....

تتعدد صفات النبى – صلى اللّه عليه وسلم – و تكثر و تتفرّع ، و لكنها تتجمع فى صفة واحدة لم تمنح لأحد قبله ، وهى كونه "سيدّ الناس" . و هذه السيادة لا تأتى عفواً أو تلقائياً، و لكنها جاءت وفقا لمقادير إلهية، جعلته خاتم الأنبياء والمرسلين ورحمة اللّه للعالمين، مع امتلاكه صفات الخلق العظيم وإمامة المجاهدين، و الرأفة والعزة ، و المروءة و الشهامة ، والكرم و المودة و غيرها من الصفات التى تليق بالنبى الخاتم و الرسول الأعظم .

و فى هذه القصة نكتشف بالدليل العملِىّ و البرهانِ القاطع ، سيادة النبى -صلى اللّه عليه وسلم-يوم القيامة ، من خلال حديثه المباشر ، وهو فى وليمةٍ أو دعوةٍ دُعى إليها ، فقد قُدّمتْ إليه ذراعُ الشاةِ المطبوخةِ ، حيث كان يحبُّ الذراع،

وهى الساق الأمامية للشاة ، مثلما يحب الناس أجزاءً معينةً منها . وقد أخذ النبى – صلى الله عليه وسلم – قطعة منها بأسنانه ليتذوقها ، عبّر عنها الحديث بقوله : "فنس نهسة" ، وفى رواية أخرى فنهس نهسة " ..ويلاحظ أنه لم يستمر فى الأكل ، ولكنه توقف لينبىء الجالسين على المائدة بجانب من جوانب صفاته يوم القيامة ، فيكمل معرفة المسلمين بطرف من أخبار الآخرة .

" **أنا سيّد الناس يوم القيامة** " هذا هو الخبر الأساسى فى القصة التى بين أيدينا ، ألقاه الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى مناسبة ملائمة للغاية ، فقد تذوق ذراع الشاة ، والقوم يتأهبون لتناول الطعام ، ففاجأهم بالخبر ، وجعلتهم المفاجأة يترقبون تفصيلاته أو أسبابه ، وهاهو الرسول – صلى الله عليه وسلم – يفصّل ويشرح ويعلل..

ويطرح عليهم سؤالا حول اجتماع الخلق فى مكان واحد يضم الأولين والآخرين ، ويبصرهم من ينظر إليهم . ويسمعهم الداعى ، وتقترب منهم الشمس ؟ هذا بلا شك يوم صعب حيث يحاسب الناس جميعاً على ما قدموا ، وهذا اليوم فيه من المشقة والعناء ما لا قبل لأحد به ، ولكن الأمل فى رحمة الله وحده ، لينقذ الناس مما هم فيه ، ويرحمهم من العذاب الذى يصنعه اقتراب الشمس من الخلق حيث تصليهم بحرارتها التى تتحول إلى شواظ من لهب حارق لا ينجو منه إلا من رحم الله .

هذا المشهد الصعب يوم الجمع ، يدفع الناس إلى التساؤل عن طريق النجاة والخروج من المحنة ، فلا يجدون غير البحث عن شفيع يشفع لهم عند ربهم ليخلّصهم مما هم فيه " **ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟** " .

وهنا يخطر على بالهم أبو البشرية آدم عليه السلام . فيذهبون إليه ، ويعدّدون صفاته التى توجب عليه الشفاعة ، أو تجعله المنوط بها دون غيره ، ويقولون له : أنت أبو البشر والأبوة تفرض الحنوّ على النبوة ، ثم إن الله خلق آدم بيده، من طين،

أو صلصال من حمأ مسنون ، و نفخ فيه من روحه ، فاستوى إنساناً حيا يمشى على قدميه و يتكلم ، و يعلمه ربه الأسماء كلها أو يضع المعرفة بين يديه . ثم إن الملائكة سجدت لآدم ، و أسكنه الله الجنة .. وهذه كلها مسّوغات تجعله أولى بالشفاعة لبنيه من البشر فهم فى حاجة ماسة إليه ؟ " ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه و ما بلغنا ؟" .

بيد أن المفاجأة تتمثل فى أن آدم عليه السلام ، يرفض هذه المهّمة ، و يقدم الأسباب التى لا تؤهله لها ، **فيقول** : "**ربى غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله ونهانى عن الشجرة فعصيتُ . نفسى نفسى .اذهبوا إلى غيرى ...**"

الأسباب تتمثل فى الغضب الإلهى على آدم ، و هو غضب لم يحدث من قبل أو من بعد ، وقد حدث بسبب العصيان الذى جرى من آدم ، وهو فى الجنة ، حيث أمره ربه أن يسكن الجنة مع زوجه حواء التى خلقها منه ، و أن يأكلا منها حيثما شاءا، دون شجرة معينة أمرهما ألا يقرباها وألاّ يأكلا منها، و لكن الشيطان وسوس لهما ، وزيّن لهما أن يأكلا منها ، فنسيا أمر ربهما ، وعصى آدم ربه فغوى ، و أكلا من الشجرة، و هنا تتبدّى لهما نتيجة فعلهما أو معصيتهما حيث بدت أو ظهرت سوءاتهما، و السوأة هى العيب الذى يكره الإنسان أن يراه غيره فيه ، و كانت المشكلة أو المأساة، التى أوقعت آدم و حواء فى محنة كبيرة. وعندما أدركا حجم المعصية، وحجم المحنة، تاب الله عليهما، و خرجا من الجنة، ونزلا إلى الأرض، وكان تاريخ جديد وعهد جديد..

سيد الناس يوم القيامة - ٢

في حديث أبى هريرة الذى أورد قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه سيّد الناس يوم القيامة ؛ يذهب الناس للتشفع بآدم عليه السلام ، ولكنه يقول لهم :

"...**اذهبوا إلى غيرى ..اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحاً فيقولون :**

يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض . وسمّاك الله عبداً شكوراً . أما ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ **فيقول :**

ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبْلَهُ ، ولا يغضب بعده مثله . نفسى نفسى. ائتوا النبى - صلى الله عليه وسلم - فيأتونى . فأسجد تحت العرش . فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، واشفع تشفّع ، وسل تُعْطَهْ "

....

وضع آدم عليه السلام سبب عدم شفاعته للناس يوم القيامة ويتمثل فى غضب الله غضباً شديداً ، لم يحدث من قبل ولا من بعد ، وذلك لعصيان آدم أمر ربه ، حيث طلب منه ألا يقرب مع زوجه شجرة معينة فى الجنة، ولكنهما بوسوسة الشيطان خالفا الأمر الإلهى ، وسقطا فى غواية الشيطان ، وأكلا من الشجرة المنهى عن الأكل منها ، فبدت سوءاتهما ، أو ما لا يحبان أن يراه الناس منهما ، وكان الحق سبحانه رحيماً بهما ، فتاب عليهما ، وعلمهما التوبة والاستغفار ، وأمرهما بالهبوط إلى الأرض ، ليكون الصراع بين نسلهما حاداً وعنيفاً ومستمراً من خلال فريق الخير وفريق الشر ، على النحو الذى فصّله القرآن الكريم ، لذا نجد آدم عليه السلام يقول : نفسى نفسى ..أى إننى مسئول عن نفسى . وطلب الفضل من الله والعفو ، وهو ما يستطيعه . اذهبوا إلى نوح فهو المؤهل للقيام بهذه المهمة أى الشفاعة ، أو لعله الأقدر عليها .

يذهب الناس إلى نوح عليه السلام ، و يعرضون عليه المسألة ، و يقدمون له مسّوغا لقيامه بالشفاعة ..

فهو أول الرسل إلى أهل الأرض ، و هو من سمّاه الله عبداً شكوراً ، و محنتهم التى يعانون منها فى المحشر ، تجعل نوحاً أولى الناس بالقيام بمهمة الشفاعة ؛ وهنا قد يثور جدل حول أولية نوح فى الرسالة إلى أهل الأرض . حيث إن الله اصطفى آدم و نوحاً و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين ، و هذا الاصطفاء بمعنى الاختيار للرسالة أو النبوة . و قد يتصّور البعض أنه لا يتعارض مع ما ورد فى الحديث "يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض " ، مع أن المسألة لا تعارض فيها ولا اختلاف .. فآدم أول الأنبياء و الرسل إلى بنيه و أهله ، قبل إعمار الأرض و كثرة الخلق ، و اصطفاؤه كان فى السماء و الجنة. أما نوح ، و هو من ذرية آدم ، فقد سبقه أنبياء آخرون منهم جده الأعلى " **إدريس عليه السلام** " .

و صححّ ابن حبان ، من حديث أبى أمامة " **أن رجلاً قال : يا رسول الله : أنبى كان آدم ؟ قال نعم . قال : فكم كان بينه و بين نوح ؟ قال عشرة قرون** " .

بيد أن نوحاً يعد أول الرسل المذكورين فى القرآن الكريم .

قال تعالى :

"شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ......."

(سورة الشورى من الآية ١٣)

و مهما يكن من أمر فإن نوحاً عليه السلام يشير إلى غضب ربه الذى لم يحدث مثله من قبل أو من بعد . و يشير إلى أنه مثلهم معنى بنفسه لعل الله يستجيب له، وينقذه مثلهم من محنة هذا اليوم العصيب، محنة يوم الحشر ، و يقول:"**نفسى نفسى**"، ثم يوجههم إلى النبى -صلى الله عليه و سلم- " **ائتوا النبى** " .

يأتى الناس النبى – صلى الله عليه و سلم – ليشفع لهم ، فيستجيب ، و يذهب إلى ربه ، و فى الحضرة الإلهية يتصرف النبى – صلى الله عليه و سلم – بما يليق بها فيسجد تحت العرش . و السجود هو وسيلة القرب كما ورد فى القرآن الكريم :

"......وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب " (سورة العلق من الآية ١٩)

فالسجود يأتى قبل القرب، لأنه علامة الخضوع و الطاعة،والعبودية للمعبود الأول.

مكافأة العبودية و الطاعة و الخضوع لله هى الاستجابة للعبد المطيع الخاضع وهو محمد – صلى الله عليه و سلم – و هى مكافأة قاصرة عليه وحده دون غيره فى هذا السياق حيث تقبل شفاعته بإذنه تعالى :

" وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ........." (سورة سبأ من الآية ٢٣)

إن تكريم محمد – صلى الله عليه و سلم – يتجلى فى قبوله شفيعاً للبشرية دون غيره من الأنبياء ، " يا محمد ارفع رأسك ، و اشفع تشفّع ، و سل تعطه " ، و هذا تمام التكريم أو الامتياز؛ الذى يؤكد على سيادة محمد – صلى الله عليه و سلم – فى الخلق جميعاً " **أنا سيد الناس يوم القيامة** " .

لقد كانت الرسالة المحمدية هى الرسالة الخاتمة ، التى اكتمل فيها الإسلام تشريعاً و بناءً ، و كانت رسالة عامة و شاملة ، للناس جميعاً ، تقوم على الإيمان بالله و ملائكته و رسله و كتبه ورسله و اليوم الآخر..

"ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَـٰمَ دِينٗا...."

(سورة المائدة من الآية ٣)

لا ريب أن الإسلام أعطى أتباعه امتيازاً إلهياً ، بالرسالة المكتملة ، و النبى الخاتم الذى جاء بشيراً و نذيراً ، يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، و أوتى الشفاعة لقومه و بقية الخلق بإذنه تعالى ، إنقاذاً لهم يوم الحشر العظيم ، صلى الله عليه و سلم .